

جمال الدين بن شيخ

سُؤَالٌ شَمْسٌ مِنْ أَهْدَابِكَ
(مختارات شِعْرِيَّة)

ترجمة: مبارك وساط

2020

منشورات جبر

ستولأ شمس من أهدابك (مختارات شعرية)، جمال الدين بن شيخ،

اختيار وترجمة وتقديم: مبارك وساط

(عنوان الكتاب من اختيار المترجم، وقد اقتبسه من إحدى

القائد المترجمة ضمن هذه المختارات)

منشورات جبر

جميع الحقوق محفوظة

جمال الدين بن شيخ

وُلِدَ بن الشَّيْخ في الدَّار البيضاء، لعائلة جزائرية تلمسانية كانت مهاجرة إلى المغرب، سنة 1930 . دَرَسَ في كُتَيْبة الطَّبِّ بمدينة ليون لسنتين، ثمَّ انصرف إلى دراسة الأدب، وأصبح، بعدها، أستاذاً للأدب العربي القروسطيّ في الجزائر، ثمَّ هاجر إلى فرنسا سنة 1968، تاركاً الجزائر بعد أن ضاق فيها هامش الحريات الفردية إلى حدِّ بعيد، في ظلِّ نظام هوارى بومدين العسكريّ، وفي فرنسا سيصبح أستاذاً بجامعة باريس الثامنة، وبعدها بجامعة باريس الرابعة.

في نطاق دراساته عن الشُّعر والنَّقد العربيين، ظهر له كتاب معروف، هو في الأصل أطروحته لنيل الدِّكتوراه، وعنوانه "الشُّعريّة العربيّة" (غاليمار، 1998). وقد خُصَّ "ألف ليلة وليلة" بدراسة بعنوان: "ألف ليلة

وليلة أو القول الأسير" (غاليمار، 1988)، بل وأعاد ترجمة "الليالي"
رفقة أندري ميكال (صدرت "ألف ليلة وليلة" في هذه الترجمة عن
سلسلة لاپلياذ، غاليمار). كما أنه نقل إلى الفرنسية عدداً من الأعمال
لشعراء عرب معاصرين.

في مجال الشعر، نشر عدّة مجموعات، من أهمّها: "كان الصمت قد لاذ
بالصمت" (الرباط، 1981)، "خيميائيات" (بويغرام، 1991)، "الأعمى ذو
الوجه البردي" (جاك بريمون، 1999)... وله رواية اقتبس فضاءاتها من
عوالم ثورة الزنج: "وردة سوداء بلا عطر" (ستوك، 1998). وقد توفّي
بفرنسا في 8 غشت 2005.

مبارك وساط

- شاعر ومترجم مغربي، وُلِد في 16-10-1955. اشتغل بتدريس

الفلسفة حتّى 2005.

- مجموعاته الشعريّة:

- على دَرَج المياہ العميقة (طبعة أولى: دار توبقال، 1990 - طبعة ثانية،

مُراجعة ومُنقحة: منشورات عكاظ، 2001 - طبعة ثالثة، رقميّة، 2020).

- محفوناً بأرخبيلات... (طبعة أولى: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001-

طبعة ثانية، رقميّة، 2020).

- راية الهواء (طبعة أولى: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001- طبعة ثانية،

رقمية، 2020).

- فراشة من هيدروجين (طبعة أولى: دار النّهضة العربيّة، بيروت، 2008-

طبعة ثانية: رقميّة، 2020).

- رجل يتسم للعصافير (منشورات الجمل، بيروت، 2011- طبعة ثانية،
رقميّة، 2020)

- عيون طالما سافرتُ (منشورات بيت الشّعر بالمغرب، 2017)

- أنطولوجيا شخِصيّة (مختارات من مجموعات م. وساط)، طبعة أولى،
رقمية، 2020.

(كلّ الطبعات الرّقمية المشار إليها أعلاه صادرة عن "منشورات جِبْر"،
وهي متوافرة على الإنترنت).

- وكان قد صدر لمبارك وساط، سنة 2010، عن "منشورات المنار" بباريس،
كتاب شِعريّ بالفرنسيّة والعربيّة (بعنوان بالفرنسيّة، مقابلُه العربي:
"برق في غابة").

- كما أنه ترجم إلى العربية نصوصاً شعريّة ونثرية، ومن ترجماته الصادرة
في كتب: "شذرات من سفر تكوين فنسي" لعبد اللطيف اللعبي

(منشورات الموجة، 2004)، "نادجا" لأندري بریتون (منشورات الجمل، بيروت، 2010)؛ "التحوّل"، لفرانتس كافكا (منشورات الجمل، 2012)، "الأبدية تبحث عن ساعة يد" لأندري بریتون (منشورات الجمل، 2018).
-في سنة 2018، حصل على جائزة سركون بولص للشعر وترجمة الشعر، في دورتها الأولى.

جمال الدين بن شيخ

ستولاً شمس من أهديك

(مختارات شعرية)

ترجمة: مبارك وساط

2020

تقديم

من الغريب حقاً أنّ جمال الدّين بن شيخ، الذي هو شاعر بقامة إبداعية عالية، إضافة إلى كونه باحثاً ومترجماً، يبقى، كشاعر، "مُتجاهلاً بشكل ظالم"، على حدّ تعبير الباحثة كريستيان عاشور، ففيما خلا جماعات من المتتبعين المنقبين، لا يُشير أحد إلى العطاء الشعري الرّاحر لبن شيخ، بل إنّه يكاد لا يُذكر إلاّ كمشارك مع أندري ميكال في ترجمة جديدة لـ"ألف ليلة وليلة"، نُشرت في سلسلة لابلياذ، الرّفيعة العماد ... ولا شكّ أنّ من يُحبّ الشُّعر ويقرأ لجمال الدين بن شيخ، ولو بالصدفة، سيكتشف شاعراً أصيلاً، مطبوعاً (كما كان النقاد العرب القدامى يقولون)، يستحقّ أن يُعرّف على أوسع نطاق.

ليس ما أشرتُ إليه من غُلبة سُهرة بن شيخ المترجم على حسابِ بن شيخ الشاعر هو الأمر غير المألوف الوحيد أو المفارقة الوحيدة التي تسم حياة هذا الرَّجل، فهو جزائريٌّ ولكنّه مولود في المغرب، إذ إنه رأى النُّور في الدار البيضاء في أحد أيّام 1930، وعاش سنّي طفولته في مدن مغربية ولم يكن يزور تلمسان، المدينة التي تنتمي إليها فعلاً عائلته المهاجرة، إلا خلال الأصفاف... وهذا أمر عاديّ إذا قيس بمفارقة أخرى، قد يراها المرء مثيرة بشكل خاصّ، وهي التي تتبدّى لنا من خلال نقطة معيّنة لدى كلّ من الصّديقين اللذين هما جمال الدين بن شيخ من جهة، وأندري ميكال من جهة ثانية. أقصد اختيار لغة الكتابة الشعرية من طرف كلّ منهما: فأندري ميكال، الفرنسي الذي تعلّم العربيّة على كِبَر وتمكّن منها وبرع في استعمالها، كثيراً ما يكتب شعراً بالعربيّة أولاً، ثمّ يُترجمه إلى الفرنسيّة. أمّا جمال الدّين بن شيخ، الذي كانت

عربية الجزائر لغةً أمه، والعربية الفصحى ذات مكانة رفيعة لدى أبيه، والذي تخصص في الأدب العربي القديم ودرّسه في فرنسا، وكان من بين طلبته أدباء عرب معروفون اليوم، فقد اختار الفرنسية لكتابة قصائده (رغم إجادته للعربيّة).

لا بدّ أن يتبادر للدّهن هذا السّؤال: لماذا ذلك الاختيار؟

لا يُعتبر بن شيخ الفرنسية منفاه، كما كان يرى ذلك الروائي الجزائريّ مالك حدّاد مثلاً، فعلى عكس هذا الأخير، لم يكن بن شيخ مضطراً للكتابة بالفرنسيّة، إذ إنّهُ كان مُجيداً تماماً للعربية. وكانت نظرتهُ إلى علاقته بالفرنسيّة مختلفة. فالأمر بتعلّق بالنسبة إليه يتوق إلى فضاء لغويّ يُمارس فيه أمرين: حُرّيته وعُزلتّه، وهذا الفضاء وجده في اللغة الفرنسيّة. فهو يُكِنّ كلّ الحبّ للعربيّة، منذ أن كان يرى صفحات مكتوبة بها وقبل حتّى أن يتعلّم قراءة ما كان يراه. وقد قال إنّ شعوره

بالتهيب عندما كان يسمع والده يتلو القرآن لازمه طيلة حياته. كما أن
عربية أمّه الشعبية، التي هي الدارجة الجزائرية، كانت بالنسبة إليه « لغة
الضحك والغضب، لغة الرقة أو الألم، لغة الحكى والغناء». كان بن شيخ،
إذاً، يحب العربية والفرنسية، وعلى حدّ تعبيره، فبقدر ما كان يجد متعة
في قراءة طه حسين، كان يعثر على ملاذّ للذهن والوجدان عند جوليان
كراك أيضاً. ومعلوم أن جمال الدين بن شيخ لم يقتصر على المشاركة
(مناصفة) في ترجمة "ألف ليلة وليلة"، بل إنه ترجم أعمالاً لشعراء
معاصرين، عديدين ومن بلدان عربيّة مختلفة (كأحمد عبد المعطي حجازي
وعيسى مخلوف ورشيد الضعيف...)، بالإضافة إلى إنجازه لكتاب عن
الإسراء النبوي، ولدراسة مقارنة لثمانى ترجمات فرنسية لسورة الكهف،
وإلى مؤلّفات أخرى ككتابه المشترك مع أندري ميكال، والمتعلق بجزيرة
العرب وبالإسلام... فالذي حدث كان هو أنّ الفرنسية أصبحت، بالنسبة

إليه، في مرحلة ما، مجالاً يمارس فيه عزلته وحرّيته، كما قال، وقد استطاب الإقامة فيها، وصارت عزلته تلك خلّاقة، يكتب في ظلّها ويُدع. لكنّ أثر الثقافة العربية بقي حاضراً في شعر بن شيخ، بالتأكيد. أكثر من هذا، ففي روايته "وردة سوداء بلا عطر"، نجده يستحضر أحداثاً من الماضي العربي البعيد، وتحديدأ مما نعرفه تحت اسم "ثورة الرّنج"، التي كانت قد اندلعت في العصر العبّاسي، بالبصرة أساساً، واستمرّت لأكثر من عقد (خلال القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري)، ففضاء تلك الرواية يتشكل من أجواء ووقائع تلك الثّورة.

إنّ قصيدة بن شيخ، على العموم، ذات رونق خاص وسلاسة، وهي تستجيب لرغبة القارئ المحبّ في أن يُبحر فيها، أن يتجوّل في فضائها العميق، أن ينتشي بما يصله منها من عبق شِعريّ ومن نسيم غريب

سرعان ما يُضحى مألوفاً بالنسبة إليه وضرورياً له. فما يُسقى عادةً بالقراءة المُجَدِّة لازم للدخول إلى فضاء قصيدة بن شيخ. وهي لن تتجاوب إلا مع من يَطرُق بابها بخفوت ثم يدخل وبين حناياه شغف إلى استكشاف دواخلها.

يقول جمال الدين بن شيخ في نصّ نظري بعنوان "تحوّلات القصيدة": «أحلم بصفحة تبدو للعين رسماً لكلمات وسطور، لكن عند تفحصها عبر عدسة مُكَبَّرَة، تُكذِّب ذلك التنظيم، كاشفةً في كلِّ من حروفها عن نشاط غزير لعلامات تتحرك ولمنحنيات-أزمنة ولخطوط-أمكنة.»

نجد في عدد من قصائد بن الشيخ حضوراً مباشراً لعدد من قضايا عصرنا، من دون أن تسقط تلك القصائد في المباشرة. أعني أنّها حين تُسلِّط الأضواء على مظهر ما أو ظاهرة أو على ما تتجسّد من خلاله إحدى

القضايا في الواقع المعيش، فهي لا تعتمد في ذلك أضواء قوية،
تُغْفُ البَصْرَ وتُجْعِدُ المظاهر التي تتسلط عليها بقوة وشِدَّة لا تترك
للظلال الخافتة النديّة مجالاً للحضور، ولا للعين من ملاذٍ تستريح فيه
لتملئ بما يتخفى وراء الظاهر، فمثل هذا الضوء الكاشف القاسي
يكون جيّداً في البحث الاجتماعي أو في المقال الصحفي وليس في
الشعر.

لنتوقف للحظة عند قصيدة لبن شيخ تتعلّق بما شهدته مصر من قمع
دمويّ لحركة احتجاجية في سنة 1977. ففي هذه السنة، وفي الشهر
الأوّل منها تحديداً، كانت هنالك احتجاجات عارمة إثر إعلان الرّئيس
المصري آنذاك الرّيادة في أثمان موادّ أساسيّة، وقد وُوجهت تلك
الاحتجاجات بقمع عنيف، بلغت حصيلته سبعين ضحّيّة ويزيد. تحمل
قصيدة بن شيخ المذكورة عنوان "مصر 77"، ومما نقرؤه فيها: « (...)

كانت هنالك هيئة غريبة في صرخاتكم / يمكن أن تكون نيلاً ما ابتلعته
الأرض / وقد انفلت من صدوع نهمة / أو أبا هول / مُعزّي من الخرافات
العفنة / أو شارعاً جُله مجنون / يُدّد محيط ساحة / حيث الموت قليل
الحياء / لا يعود يُجّل الثمائل / بالمساحيق (...). « هذه القصيدة
تنتهي بالبيتين التاليين: « لن يجري الدّم بعدُ / في الطّل ».

هنالك أيضاً قصيدة له، تجسّد لنا بشاعريّة أنيقة ونفاذة، مدى إدقاع
الفقراء من الهنود، ومن أبياتها: « في عيني شيخ يموت جالساً / على
أحد أرصفة مومباي / ليس هنالك الأبدية / هنالك ذباب / بين ذراعي
امرأة تضحك جالسة / على رصيف بمومباي / ليس هنالك الحبّ / هنالك
جنين... ».

إنّ قصائد بن شيخ تنأى عن المباشرة التي تُضّر بالشعر، وتعتمد التعبير

الرهيف، الذي يترك للخيال إمكانية التدخل والتحليق قليلاً أو كثيراً، كما أنها تترك للعلاقات بين الكلمات أن تُؤدّ مياهاها الصافية التي تبجس من أعماق بعيدة أو دانية، مثلما تُؤدّ شراراتها المتقدة، شرارات الدلالات غير المرتقبة التي تمنحنا مُتعة القراءة والاستكشاف المتجدّد عند كلّ قراءة.

هكذا، فإذ يحنّ الشاعر، مثلاً، إلى بنات عمّه البعيدات، في تآكرات بالجزائر، هو الذي أقام في فرنسا بشكل نهائي منذ 1968 حتى وفاته، فإن ذلك الحنين يتجلّى في قصيدة قصيرة مشحونة شاعريّة، يتداخل فيها الارتباط بالعشيقّة الحالية والحنين إلى زمن مضى، زمن كانت فيه بنات العم المذكورات حاضرات فعليّاً بالنّسبة إليه. هذه القصيدة هي التالية: « أعلّق ضحكاتي إلى كعوبكنّ / يا فتيات يا بنات عمّي بنكّزارث / وفيما عشيقتي تُشمر رداءها / على تخوم ليلها العموديّ /

أشرب من النّبع / صورة عُزّيها «. أليس السّحر الشّعري هو الذي يجعل
من الضّحكات خلاخيل، كما يجعل صورة عُري العشيقّة حاضرةً في النّبع
دون أن يكون وجود تلك العشيقّة جنب النبع ضروريّاً لتتمرأى فيه، وإنّما
تكون على تخوم ليلٍ عجيب غريب، هو « ليلها الغموديّ »؟

هنالك الكثير ممّا يمكن أن يُضاف بخصوص القصيدة لدى بن شيخ،
لكنّني أفضل التّوقف هاهنا، تاركاً للقارئ أن يستكشف هذه القصائد
المختارة، أملاً أن يجد في تجربة قراءتها نفس نشوة السّفر إلى أقاليم
غير مألوفة، التي وجدتها وأنا أنقلها إلى العربية.

مبارك وساط

فيما يلي، مختارات من مجموعة " كان الصّمت قد لاذ بالصّمت "
Le Silence s'est déjà tu

وبعدها ثلاث قصائد من مجموعة " الأعمى ذو الوجه البرديّ "
L'Aveugle Au Visage de Grêle

(بمعنى: " الأعمى ذو الوجه الذي من برّد ").

مختارات من مجموعة:

كان الضمُّ قد لاذ بالضمّت

1

لا أنسى شيئاً

أنا جاثٍ أمام باب مُفْرَغ

الظلال التي تُفْتِّشني هي المطوّقة بالعزلة

وليس أنا

حكمة الأغصان تعيدُ كتابة الأفق

لا يزال هناك

قليلٌ من الوقت يجدر ربُّه

وشكلُ الصّداقة على شفّتين

وضجّة برعم تُوسِّعُ النّهار

لا أنسى شيئاً

الأشجار تُشير إلى الفجوة

التي يُمكن الانفلات عبرها

لكن يجبُ قطفُ

العلامة المخلّطة

السُّرارة تُفلحُ في إقلاعها

فلأمسكُ بالخيط الرّابح من بين الخيوط

المتشابكة وستنكشف حُشمة النّدى

المستورة

أحتفظ بنظرتك بأناتك

لأُحْضِلْ زَاداً فِي طَرَقَاتِي

حَيْثُ تَنْعَدَمُ الْعَدَالَةُ

عِنْدَ الْفَجْرِ سَتُكَوِّرُ فِجْوَةً فِي الْغَابَةِ

صُورَةَ قَمَرٍ

أَضَعُ يَدِي عَلَى ظِلِّكَ الَّذِي يَسْبِقُكَ

أَحْسَسُ فِيهِ خَفَقَ الْوِلْدَانِ

لَا أَنْسَى شَيْئاً

2

في الشرفة السعيدة تنقلب امرأة

على ظهرها

الضوء ينطوي في هيئة عناقيد

بعيدة الغور

اليوميّ يُحكّم مطابقة نفسه على الخلم

فيما ينابيع الجسد

تتجاوب

بين الأهداب تتأجج

مفاجآت

اعتراف الغضو الجنسيّ يصفل الزّمن

يتدفّق الخمر من حدقة

مثلما قطعة نسيج مُخرّمة

حول الرّسغ

ويُفرغ شلال نفسه

من ربيعته، بأناة

من مرجانٍ هو الفضاءُ بأكمله، قُربَ

الأفق

الكلمات تغسل وجوها اللامرئية

عطرٌ يحرثُ شفقاً، كُفُّ

تستبقي الليل

وفوق تموّجات نهد

يتهاوى فتات نجم

هرجاً ثابتاً، يَنْضغُ العالم

في راحة اليد

غداً أُوَجِدُ

مدينة الآخرين

أسيرُ على امتدادِ شارعِ نساء. أمتصّ الكلمات المنتفخة
 في لغة أجنبيّة. كلّ خطوة تقتلني من جذر
 ويديّ تُلامسان أحجاراً من دون أصداء.
 كلّ شيء يعيدُ تشكيلي ويفتُ في كبريائي. نظراتُ ملساء
 تُربكني. لا شيء يدلّ عليّ، كلّ شيء يُشير إليّ.
 أتعلّم التّواضع من بلّورة تُركت للأصابع،
 أنفك من علاماتي. زائغاً عن ذاتي،
 مُبعداً عنها، مُدمّر القلاع،

أعقد العزم على أن أكون واجداً.
أتقدّم في مرآة يُلهبها زبداً حيّ .

4

الرَّيْحُ تُشَكِّلُ نَايَاتَهَا الأَرْجَوَانِيَّةَ

لَا حَظَّ لِي فِي العَيْشِ إِلا بَيْنَ ظَوَاهِرِ

سِحْرِيَّةِ وَاقْعِيَّةِ

أَنْجِرْفِ عَلَى نَسْوِغِ النَّبَاتَاتِ

عِنْدَ الغُرُوبِ شِلَالَاتُ تَفَكِّ إِسَارِ مَجْمُوعَةِ أَوْلَى

مِنَ صُخُورِ الشَّاطِئِ الزَّرْقَاءِ

الَّتِي هِيَ أَوْرَاقٌ فِي غَابَةِ، أِبْدَاءُ

لَنْ تَنْفُذَ

أَبَاغِثُ التَّارِيخِ فِي كُلِّ وَامِضَةٍ تَنْزُو

عَلَى السَّمَاءِ

بالسّكين أخلّص في اللحاء أقنعةً

الحقيقة عجبٌ عَجاب

5

ذكري

سأصقل بلساني ملح

جفونك الممّزّقة

ستولّد شمس من أهدابك

وعلى مهل أفكّ الطّحالب

من حول قدميك

فلا يبقى عالقاً بهما

سوى ذكري رقّة الزّبد

6

دُكَّان

هنا، لِصَفِيحِ القُدُورِ

بِسَمَةِ عمِياءِ

رَصِينَةُ هِيَ حَرَكَةُ البائِعِ

الَّتِي تأسِرُ السَّماءِ

بَيْنَ الرُّنْجَبِيلِ وَالكَمَّونِ

أثَقَّةُ أَمْرٍ يَتَطَلَّبُ الكِياسَةَ أَكْثَرَ

مَنْ وَزَنَ أُوقِيَّةَ شايِ

حِينَ يَكُونُ التُّعْناعُ قَدْ اِكْتَسَى

بالقرمزيّ، لون الدّم
الذي تصاعد حتّى جفوننا. الفلفل الأخضر
يعضّ على دقّة القدر

7

يقظة

من أحمرٍ ثرثارٍ يولدُ شكلاً مُجدِّداً

المستنقع تحت الجفون

يجعل السماء أبعد غوراً

وَالصُّورَةُ طِفْلاً نُنْهَا

وَعُوذُ النَّارِ

عَمَّا قَرِيبٍ سَيُقَالُ

إِنَّ سَيُولَ مَاءٍ سَرِيعَةً تَنْبَجَسُ

من خواصر الكلمات

نسيانٌ سيِّدٌ مبسوط، مثلما شرشف نقيّ

على سطح الأكاذيب

من كلِّ رغن مُتمسِّك بالصِّيف

تنجس

قرايينُ الدّم

8

جَمال

أَقْتَطَعُ مِنَ النَّهَارِ مَا أَكْسَو بِهِ إِنْسَاناً
أُحْكِمُ مِطَابِقَةَ الْأَفْقِ عَلَى وَرْكَيْهِ
بِالِدَّابَّيْسِ أَشَدَّ إِلَى كَتْفَيْهِ
حِصَّةً مِنَ الْفِضَاءِ تَنَاسَبُ بِدَقَّةٍ جِسْدَهُ
فُضْخِماً جِسْداً وَرُوحاً
يَنْعَتِقُ جَمالَهُ

الفلاح الذّاهب إلى الحقل

وبيده منجل

إنّه يُوجّه النّهار نحو الأعشاب

حيثُ انتقى الجليدُ خندقه

يُميلُ المساءُ نحو عزلةٍ

فَرْعِ كَرْمَةٍ

يُنْقِي نبتةَ الرّتمِ على البعد الكافي

لتنفتح للرّيح منافذُ السّماء

10

أعَلّق ضحكاتي إلى كعوبكّن
يا فتيات يا بنات عَمّي بِتَكْرَارْت
وفيما عشيقتي تُشَقّر رداءها
على تخوم ليلها العموديّ
أشرب من النّبع
صورة عَزِيها

أزِيحُ أوراقي شجرة لأجَبِّكَ
على ساعدكِ بِلَوِّ الرِّيحِ
النَّدَى يشتعل على خِضْرِكَ
وفي اتِّجاه قوسِ قُزَحِ نَبْعِكَ
تُرْسِمُ أصابعُكَ، حالمَةً
فَمَ قرنفلة مستكين
بغتَةً أنفدُ إلى نظرتك
أزِيحُ أوراقي شجرة
لأجَبِّكَ

12

أنهار

أنهار مديدةً تنساب،

ليليَّة،

على خصرك

13

طِفْل

قريباً من البحر بأقلّ من أريج
بدأ جسفه يَشَهَرُ على الرّيح
فمه صار ابتسامَةً للزّيد

الريّح تعيذُ إلى القطيع

الآلام المائلة

ما يفصل قرميذةً عن أخرى

هو قوّة الملح

في قبضة الشّمس

لا يكون الانتحار

سوى تكرار

للحياة

لكنْ بين يدي الطّفل

تتعزّي السّعادة

15

منحتُ اسمكِ

إلى الأبد

لكلّ طفولة

16

منذ وقت

منذ وقت لم يَعُدْ شُبَّانُ المدينة يَجْرُؤُونَ

على الالتفات صوب النَّهر

أصبحتِ الرِّياحُ مائِلَةً

نظرةً إثرَ نظرةٍ انتقلَ الخبرُ

فقد كانت فراشةٌ تَخْطُّ رسائلَ على الأسوار

في الحَقَاماتِ أحسَّ المُدَلِّكونَ

بما يُشبهُ الحجارَةَ في عمقِ الأكتافِ

أوائلَ حرَّاثي الصِّفافِ المغمورةِ بالمياهِ

كانوا يعودون في صمت
الرّعاةُ بدؤوا فجأةً يختبرون مقاليعهم
بالتّسديد إلى العقبان
بين الثلج الأخير والريّح الرّملية يُقال
إنّه لم يكن هناك سوى رقّة أهداب
وطُلب من المؤدّن الأعمى ألا يقرأ
أثناء صلاة المغرب سُوراً
تتحدّث عن علامات تُولد منها
أجوبة متمرّدة
من مجاري الأنهار المنسية حيث ينمو الحنظل
عاد الأطفال بجراد أخضر يُؤكل مع العسل
الخيّاطون كانوا يقدّمون فساتين غامضة الأشكال

ومات أحدهم إذُ وخرَ وريدَ رُسغه

البحيرة المحاطة بالنخيل

غَطَّتْ مُجَدِّدًا صخوراً زرقاءَ تسهر في مائها

مثلما أسماك قلقة

الأقهادُ انفصلن نهائياً عن أولادهنّ

حُرَّاسٌ مُسَلَّحُونَ، مُوَلِّينَ البحيرةَ ظهورهم، كانوا يمسكون

بمقاوِدِ كلابٍ سلوقيّةٍ من دون بطون

أَحَدُ مُعَلِّمي المدارس أدرك أنّ السَّبيل الأوحَد

لننخيل الموت هو أن نَموت

وفيما كان بِنَاءً يرّم جداراً ببيت قديم

عَثَرَ على هيكل عظميٍّ لطفلٍ وليد

رائحةُ نخلةٍ ذَكَرَ انبثقت ذات صباح

وبقيت معلقة بالعوارض
اقتيدت العذارى إلى البحيرة وقد عُظين
بشراشف سوداء
الشمس لم تُغادر الأفق إلا في وقت متأخر
من الليل ورجعت من قبل النجوم
اثنا عشر ساعة تقى رؤيتهم جهة التلال
لم يعودوا إلى الظهور
كما في كل سنة نفا البنفسج
على الصخور
يقال هفساً إن مغارات الجبل
تحتوي هياكل عظيمة شابة ممددة
في الوضع الذي تتخذه الأجنة

لكنَّ أحداً لم يَفِضِ قطَّ هناك

ليزى.

في نَظْرَةٍ، كانت هنالك

طريقٌ عميقة

في نَفْسٍ مفاجئ

كان ثَمَّةَ شفقٍ يتألّم

وَصَوْءٌ مُدْطَم

خُلف قضبان هذا العالم

وكان الصَّمْتُ صاحبَ الحِصَّة

الغنيّة بِالْإِعْطاء.

18

صِبَاغَةُ 1

ليل متحجّر عطيّة ذئابٍ

محتشدة على رابية متدرّجة الارتفاع

المدينة تُسنّ أسنانها

عظامٌ منخورةٌ بالحُب ترتجف تحت خُطانا

على الحيطان تُقَمِّمهم خرائطُ بها كُسور

الرّزقة تفتح ساقبيها لخربشاتنا البخاء

المنثورة على الجدران

(عُرسٌ أزهار على الأسوار)

يُشَقَى مِنْهُ بِالْمَلْحِ الْحَيِّ

غَيْرُ مَأْمُولٍ ضَمُودٌ ضَوْءٌ يَكَادُ لَا يُوْجَدُ

بذرة زائفة

أو ظلٌّ نهائي

الفرق يقود إلى المحاور العميقة

في زاويتيَّ النهار جُؤجُ السّفينة السّاكن

أنفاسُ الفجر تهبّ على طرفه.

موازيةً للجرع

عضلةُ الأضواء

كزّمة الدّبابير ذكرياتُ ما زالت تتوقع

المحذور ما من بقعة في البحر أقلّ أماناً

من عطر تحت غصن البئر تنغلق

على الصورة

سماء ليست لأي مرآة

الليل يتجوهر

مثلما حُلم يقظةٍ لأراض بحرية

في مساء الأزمنة العمياء

عطورٌ جآجئُ جانبٌ من الحُقى ارتجّ

على الدوام يمضي نحو الجبل

حيثُ يزداد سُفكُ الخوف

غيوم ليست لأيّ شفق

بعد شعاعٍ بالكاد سينقلب

أملُ الاعتقاد في البحر

21

إذا كنتم تخفّنون قليلاً من هذا الحَبِّ

الذي أضحى باهتاً

الذي ينغرس، دُوراً، في الصّدغ

إذا كنتم تعرفون كيف تُعيدون

وَضِلَ قَطْعِ الشَّارِعِ

التي تزيغ تحت ضوء النهار

إذا كنتم تستطيعون أن تُحاكوا شَجْرَةً

أكثر من دقيقة وسط الحشد

وراحات أيديكم الملساء مُعَزَّضَةٌ لِلرَّيْحِ

إذا كنتم بلا عناء لا تشعرون بالخجل

مِن وَضَعِ وَرْدَةَ غَنِيَّةً بِالْيَنَابِيْعِ فِي عِرْوَةِ مَلْبَسِكُمْ

بَادِيَةَ لِكُلِّ رَأْيٍ

إِنْ كُنْتُمْ تَتَفَهَمُونَ عِيَاءَ خَصْرِ

وَرِغْبَتِهِ

فِي الْاِسْتِنَادِ إِلَى السَّمَاءِ

فَأَنْتُمْ جَاهِزُونَ

رياح منتهكة للغياب أشرعتك
 تحفر نقوشها في عزلاتنا المواربة
 هنا كلّ نقش نافر ينشق
 الضُّور تنحني على أشكال مبهمة
 الكلمات لا تكسو الدّم
 بستان اللقاءات
 ليس له سوى جليد من قصدير
 ليحمي البذور
 مفرقات العيد وأفواه ليلية
 لم يعد هنالك من مفاجأة وللغقي
 السماء

التي تُسَوِّر نفسها بالريّح دون أن تُننّ

لا شيء يبدأ

23

پويگ أنتيتش¹

Puig Antich

وزيادةً على الموت له

نظرةً الكلب التائه الصّفاء

إنّه يَعدّ الأحجار

واحدةً واحدةً

بداخله تنكسر الصّفة

1 - وُلِدَ في 1948 ببرشلونة وبها أُعِدِمَ في 1974. وهو مناظر أناركي كتلاني، وطريقة الإعدام التي اتُّبِعَتْ في حَقِّه كانت شديدة الوحشيّة، فهي تقضي بأن يوضَّع أمام عنق المحكوم قضيب حديدي قصير وبطريقة ميكانيكية تبدأ تلك القطعة الحديديّة في الضُّغط على العنق إلى أن تنبسط هذه الأخيرة مثلما ورقة.

عقربُ سُفته المفتوحة
يرسم علامة أخيرة للريح
أعلى من الموت يلحق جفنه
تجعيدةً خفيفة
للوقت
شمس خضراء تطلع في القلب
والنار تُطلق إصار ثعابينها
وتنتشر ابتسامته في الفضاء
يلفّ جسده بالزمن
يلتفت

وَمِنَ أَعْلَى مِنَ الْعَوْتِ يَتَأَمَّلُ

الْيَدَ الْمَرْفُوعَةَ

الَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ

فَجَاءَهُ يَمُوتُ

مِثْلَ طِفْلِ

- 24 -

سبع سُورَ لنيرودا:

(مقطعان مختاران)

-3-

الطائر الليلي يقيس جناحيه إلى الليل
وتمرّ تحت جدراننا ظلالٌ تمشي القهقري
أيها الشعب العريان الشعبُ الأعزل المتروك عارياً
الذي شيء له أن يكون أعزل
وراحات الأيدي على الألفية كبّورات

ها نشيدك الأسير يستعصي على فُجرنا

وعلى خجلنا يتغذى أسيادك

أسيادنا

الخنازير ذات الخطوم الصماء تنبش

في كل مكان قبورنا الجماعية

-7-

يا التشيلي جسدانا يتماسن

السَّيل يفتح أعضاء البحر الحميمة

فُوء الدّبابير

فوق بلدة المستقبل
بين الزَّبد وإكليل الغار
لن يكفَّ عن تسنين ذاته
أرجلنا ترتعش فوق الشُّفرة
لكنَّ الشُّفرة
هي هنا أمام أعيننا
كأنفِ يدي مظهره الجانبيّ
والعيون تُفقدُها الشفرة
أهدابها

25

العائلة المُقدّسة

في عيني شيخ يموتُ جالسا

على أحد أرصفة مومباي

ليس هناك الأبدية

هناك ذباب

بين ذراعَي امرأة تضحكُ جالسة

على رصيفٍ بمومباي

ليس هناك الحبّ

هناك جنين

بين ساقبي رجل يرتعشُ جالساً

على رصيف بمومباي

ليس هناك الرّغبة

هناك الجذام

في القبضة المنخورة لطفل جالس

ما يزال به حراك

على رصيف في مومباي

ليس هناك التّماء

هناك الخوف

في المرّة القادمة

ربما يُسوّفهم الحظ

ليكونوا فئراناً

هَجِيرُ زَنْقَةِ مَرَكَش

يَفْتَحُ السَّهْلَ شَدَقِيهِ. الشَّارِعَ يُذَعِّنُ. عَطَوْرُ

الصَّبَاحِ تَهْجُرُ المَرَايَا. الجَسَدُ،

تَوَّاقِئاً إِلَى أَنْ يَكُونَ لَا شَيْءَ،

يُوقِفُ سَيْرَهُ فِي أَقْصَى الذِّكْرِ

حَايِكٌ² يُحَاكِي الحَيَاةَ النَّاعِمَةَ لِلسِّيْقَانِ

2 - الحايك: لباس تقليدي مغاربي أصله أندلسي. من القماش. تلتف به المرأة وينسدل

على سائر جسدها.

ظُلُّ مَرْتَعَشٍ حَيْثُ يُقَبَّلُ صَدْرُ

تَحْفِلُ مِرْقُ صُورٍ لِلصَّحْرَاءِ بِأَبْوَابِ.

خَلَفَ عَجَلَةَ عَرَبِيَّةٍ، جَسَدُ طِفْلِ حَاذِقٍ

يُمْسِكُ عَقْدًا زَائِفًا لِيُؤْمِنَ بِالْبَحْرِ.

أَبْعَدَ قَلِيلًا إِلَى الْيَمِينِ، لِيُصِقَ الْحَقَامَ الشَّعْبِيَّ

حَيْثُ تَنْضَحُ تَمَائِيلُ مَاءً، بَائِعُ بَهَارَاتٍ

يَبْتَدِعُ أَجْزَاءَ صَغِيرَةٍ مِنَ الشَّرْقِ. نَخْلَةٌ تَحَاوَلُ

بِلا جَدْوَى الْبَتْرِ مِنْ أَعْضَائِهَا، فَهِيَ لَمْ تَعُدْ

سِوَى قُرْجَةٍ.

أَيُّهَا الشُّعْرَا يَا جَوْجُوْ سَفِيْنَةُ
 مَدْفُوعاً نَحْو ثَبَجِ اللّاعْقَلِ
 أَسْمِعْ صَوْتِ جَانِبِيْكَ يُكْشِطَانِ
 إِذْ يَحْتَكِّانِ بِضَفَافٍ ثَابِتَةٍ
 تَحَلِّ نَسِيْجِ الظُّلْمَاتِ وَأَكَاذِيْبِيْهَا
 تَفَكِّ سِفْرَةَ الخُرَافَاتِ
 الَّتِي تَشْتَعِلُ فِي عِظَامِنَا
 تَجْتَنُّ حَتَّى ظِلِّ الخُدَعِ
 الْمَغْرُوسَةِ فِي عَيُونِنَا
 تَمْنَحُنَا مُجَدِّداً
 جَسداً بَاهِراً.

هكذا إلقاء شعرك

إلى جان سيناك³

من أعلى جدارنا ننتزع ليلنا

نعيد فتح بابنا للبحر

نترك مياه نهر تخفق فيما بين أوراكننا

ننزل إلى تحت الزمن مثلما إلى بئر

لنجعل لمياهه من أيدينا نجوماً

3- جان سيناك (1926-1973) : شاعر جزائري، فرنسيّ الأصل. كان مناضلاً شيوعياً وتمّ اغتياله في الجزائر العاصمة.

نعيد ابتداء كلّ بتلة
ونضعها كما قربان
على التّخم الهسّ للنّهار

هكذا سنسقط في اتّجاه السّطح الأرضي
ببطءٍ ورقة

سنتحدّى الدّوار الذي يسببه التوازن
سنعيد إنتاج أنفسنا إلى ما لا نهاية

في اتّجاه الجميع حزمُ نزيّفك الخلاق

باقَّةُ فِعْلٌ قَتْلٌ لا جَدوى منه

حيثُ الوردة في عروة اللباس تجرح حنجرتي العارية

أجتذب إلى بطني كلَّ النيران

التي أنا بها مهووس

تحليقٌ غريب انتهاكٌ برتقالي لِبَرَق

تنضجُ السماء عناقيدَ عميقة

أشعر أنني أولدُ من جديد حيث أموت

مثلما تلتحم الموجة الخرساء

بالصمت الأخير للشمس

لأقول إنني أُحِبُّ

لأقول إنني أُحِبُّ

لن أضع بعدُ قناعاً للحياة

السَّمَاوَاتِ تُخَفِقُ بِأَجْنَحَتِهَا

مُعْتَرِضَةً أَبْصَارَنَا...

فِي طَرِيقِ تَبْهَرِ الْعَيُونَ

تُسَوِّطُ الْأَغْصَانُ خُصُورَنَا

بِعَضَّاتِ طَوِيلَةٍ...

السَّمَاءُ تَتَضَوَّرُ عَلَيَّ جَفُونَنَا...

فِي كُلِّ نَافِذَةٍ

تَنْتَفِضُ عُزْلَتُنَا

لَكِنْ كَمَا نَجُومُ

مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ

تنبعث أمثولاتنا

من الشمس

يا كَفَّ الفلّاح أتعلّم الأبدية

من تشققاتك

الجمال المبتورة من غضونك

أنصعق كحشرة

بضوءك المُجَعَّد

تدلينني على اتجاه الزمن

برعشة من سبّابتك

وأمضي في حركتك العموديّ

مثلما على طريق

شديدة الوعورة

محفورة

في صيف السماء

32

مصر 77

أمواتكم يزحفون على أعناقهم

رعاةً بعجاري العياه

لهم أفواه أقمار

وأنتم صنّاع دنتيلا بلا خروم

تقرع باكراً عطوژ دامية

زجاج نوافذكم

ينايرُ الولادات

نهاية مواسم الحج الكرنفالية

لا يحمل الحجر الأسود بسوى

ئدوبكم

لقد سقرتم سُوركم

على ظهر النهار الطالع

في شارع الأهرامات

كانت هنالك هيئة غريبة في صرخاتكم

يمكن أن تكون نيلاً ابتلعته الأرض

وقد انفلت من صدوع نهمه

أو أبا هول

مُعزّي من الخرافات العفنة

أو شارِعاً جُلُّه مجنون
يُحَدِّد محيطَ ساحة
حيثُ الموتُ قليلُ الحياء
لا يعودُ يُجَمِّلُ التَّمائيل
بالمساحيق

يُفَكِّهها أنْ تكونَ قصيدة
تُعِيدُ إلقاءَها أفواهَ مترجِّلة
في اتِّجاهِ هذه السَّماء
حيثُ راحاتُ أيديكم المُرتبِكة
تضعُ تواقيعَها

كلٌّ عادَ إلى مكانه

كُلّ شيء يؤكّد ربيّكم

لن يجري الدّم بعدُ

في الظّل

33

اكتسبت حياتي فجأةً ببياضات فجرنا
المرئيِّ لا أتخيّل شيئاً فوق يدَيِّ
العاريتين سواكِ أنتِ كاملةٌ أنتِ حيّةٌ في
هذا الصّمت الأمغر حيثُ يُقتسم
كلُّ شيءٍ في العالمِ جَمرةً تُررِقُ
في فمي وأنا أحضن النّهار وننّصّام. الذاكرةُ
تنبري لتجيد الهتاف بنشيدٍ وعدٍ مفتوح
على الدّم وتبتسمين رقيقةً لخلمي الحجري.

لكن من جديد لخبلكِ سأسلم مرفئي

في مرآتنا العنيدة سأراكِ

يتساقط الثلج منكِ كأثكِ سُعلة

أيا غيمتي المديدة

ساعةً فيكِ تتقدّمِ شاسعةً كحلِمِ يقظةً

محفورٍ في سفحِ خصرِكِ

بين نظرتكِ وحياتي جليدٌ سُجيرة وزال

تناثرث عليه نجوم

أجعل لك تاجاً من كلمات يوميّة

أبني مُجدّداً بالأحلام أسوار حصننا

المرئيّ

إسمعي: الريح تنهّجني آخر كلمات

العالم المجهولة

لك وحدك أن تحبيني لي وحدي

أن أفهمها

سواء أفككتُ أزرارَ فستانك أو

أمسكتُ بيدك في اتجاه ليل المدينة

فابتسامتُ منك بالكاد مرئيةٌ تُعيد

تشكيلَ الأرض لعينيِّ

مفعمةٌ بالحياة

الكلمات تحت ثقلكٍ تنحفر.

قصيدتي تدور حول الجزيرة الضُّلْبَة

حيثُ تتنفسين

وتعبر سماءك مثل ريح مَقْطَعَة تنتظر

النهار

أُسْقِيكَ. أحوك حولكٍ شِباكاً

محمومة، لكنَّك باندفاعه تهربين. لا

تبقى جملي ثابتةً على كتفيك إلا

للحظة صمتٍ واهية.

حُبِّي يتمرّن على الصّبر. أتقدّم

نحوك بخطى غامضة في مرآة مأهولة

بحركات غير يقينيّة.

بحرّنا يمتلئ بالظلال حدّ التّخمة. بداخلي

تهطل طراوة البلد الهادئ الذي يُحوّل الذاكرة.

تحت كرامة الطفولة، العنيدة، أنحت نفسي

على وركيّك.

الكلمات تُعيد إغلاق وجوها. لكّني

إذا ما نثرتُ على بطنك شمساً مُخلّصة،

فستفتح لي رعداً طرقَ العالم. تمشيين
على الأرض، وتحتك أنتِ تتمدّد قصيدتي.
تحلّين خيوط الزمن في كلّ من إشارات يدك، التي
تبتدعني.

هو، من دون أن يلتفت
 وقبضتاه القليقتان تحت رماد
 الفجر
 صلّى لرغبته

هي وقد كفت عن الحركة
 وكان ثلج شمس يسقط تحت جفنها
 شربت منه

وهو دون أن يتنفس
 رسّم علاماتٍ على

جسديهما

وجعل عضوه الجنسيّ يُؤلّد

مثلما معدن تصرخ فيه النار

وهي انفكّت من الألم الموعود

كسرت قوس فخذيها

وأنصت للزمن

في الغرفة السراب

وهو الساكن تماماً مستسلم

لرقصة

الظلال

وهي مستلقية بين نور

وموت

لها نظرةٌ نُشيد

وهو واقفاً في مواجهة حياته

بعثَ فيضاناً في الحجرة العميقة

الليلة الثانية بعد الألف

أجعلك عاريةً لأخذ

قياس السماء

أناتي عمودية

حشرة مشكوكة بدبوس ستئنُّ من الضوء

تنظرين إليّ وكمدينة هادئة

ستفتحين لي أزقتك الدّوّارة

عليك أكتب حُلم يقظة حتى أقصى الدّم

سرّه في قبضتيّ يفتح

رسالته البرتقالية

أنير الحياة لخصرك
وسيداً أخيراً لحكايتي
أنهي قِصَّةَ العالم



مختارات من مجموعة:

الأعمى ذو الوجه البرديّ



أُمسِكِ مثلما ذرّة لقاح
أو فتات تساقط من شجرة لوز
أدنى تسرّع
يُفكّنه أن يصير شبيهاً
بِعَصْفَةِ ربح
فيَقذّف بكِ نحو الفضاء
ويقوّد الصّديق اللين
نحو اسمكِ الجديد

إِذْ، أَثْنِي أَصَابِعِي

فَتَخْتَفِينِ فِي لَيْلِي

39

أُرْسِمُ لِي صِدَاقَةً

أَصْعُ لَكَ قِطْعَةً نَقْدِيَّةً

عَلَى مُتَّكَأ النَّافِذَةِ

سَتَكُونُ دَائِمًا مِنْ ذَهَبٍ تَحْتَ الشَّمْسِ

وَمَا عَلَيْكَ سِوَى أَنْ تُبَدِّدَ الصُّبَابَ

بِنَظْرَةٍ.

الأعمى ذو الوجه البَردي

إنه يختار الرِّق

ويترك قلم القصب ينزلق

لينساق في مجرى أوردته

حتى الملح الحيّ للصفاف

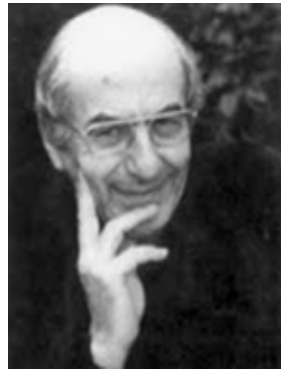
لقد جعل هذه المرأة قصيدةً في نقطة

كتاباً في حرف

كُوناً في الهامش الضيق

فهرس

- 8 - تقديم -----
- 18 - مختارات من "كان الصّمت..." -----
- 94 - مختارات من " الأعمى ذو الوجه البَرْدِيّ" -----



أُعَلِّقُ ضَحْكَتِي إِلَى كَعُوبِكِ
يَا فَتِيَاتِ يَا بَنَاتِ عَمِّي بِتُكْرَارِ
وَفِيمَا عَشِيقَتِي تُشَقِّرُ رِءَاءَهَا
عَلَى تَخُومِ لَيْلِهَا الْعَمُودِيِّ
أَشْرَبُ مِنَ النَّبْعِ
صُورَةَ عُزَيْبِهَا

سُئِلَ شَمْسٌ مِنْ أَهْدَابِكَ
(مَخْتَارَاتُ شِعْرِيَّة)